Issn:2572-0023

البعثات العلمية الميزابية إلى تونس ودورها في تفعيل النهضة الفكرية الجزائرية

د/ بن رحال يمينة
قسم التاريخ جامعة المسيلة
benrahal2009@yahoo.fr

الملخص:

مع بداية القرن 20م أخذ أبناء الوطن لا سيما الميزابيين منهم يفكرون وبجدية في الهجرة نحو الخارج في ظل حرمانهم داخل وطنهم من كل متطلبات الحياة، لا سيما الثقافية منها، بسبب وجود الاستعمار الفرنسي الذي سخر كل إمكانياته في محاولة منه لطمس هوية الشعب الجزائري، ولم يجد الجزائريون منبعا ينهلون منه مختلف العلوم ويقضون به على الجهل سوى الهجرة نحو البلاد التونسية، حيث كانت الوجهة المفضلة لهم لأسباب عدة فقصدوها إما على شكل أفراد أو جماعات في إطار ما يعرف بالبعثات العلمية الميزابية التي تمكنت من الوصول إلى تونس قبيل الحرب العالمية الأولى، واستمرت إلى غاية الستينات حيث كان لها النجاح الكبير في تكوين الطلبة تكوينا صالحا بما يخدم الوطن.

الكلمات المفتاحية: ميزاب- نهضة - هجرة، تونس- الجزائر.

Résumé:

Pendant, la guerre de la liberté, certaines personnes cultivées décidèrent de changer la situation de l'Algérie au niveau de la culture, la sciences et les autres domaines en choisissant l'immigration en Tunis pour continuer leur étude ou pour travailler, et faire le commerce. Les écoles tunisiennes et surtout la mosquée Zitouna accueillaient les étudiants algériens. Parmi les immégrer il y a Abd H Ben qui a fait des contacts scientifiques entre les deux pays, ce qui pousse les algériennes surtout les habitants du sud escalent les Mozabites de partir en Tunis. Pour revenir en Algérie et pour participe à la libération de leur pays.

Les mots clés: Mizab, Renaissance, Migration, La tunisie, Algérie.

مقدمة:

احتلت فرنسا الجزائر عام 1830م، ولم يكن هدفها الاستيلاء على الأرض وحدها، وإنما رسمت لها هدفا بعيدا لترسيخ هيمنتها، والذي يتمثل في غزو البلاد غزوا ثقافيا ولغويا وعلميا والتغلغل في المدن والأرياف بواسطة البعثات التبشيرية في شكل حملات للتنصير والتحالف مع أصحاب الطرق والزوايا لنشر الضلالات والانحرافات وإضعاف العقيدة الإسلامية، وكان هدف فرنسا من هذه السياسة هو القضاء على الشعب الجزائري، واجتثاث جذوره الحضارية وبتر صلاته اللغوية والثقافية التي تشده إلى شقيقاته العربيات وخصوصا إلى جيرانه الذين تربطهم به أواصر المصير المشترك.

I- الوضع الثقافي في الجزائر منتصف القرن التاسع عشر

قبل احتلال فرنسا للجزائر لم تكن الأمية سائدة في الأوساط الجزائرية، بل كان المجتمع يعرف ازدهارا ثقافيا، حيث كان التعليم التقليدي منتشرا في كل ربوع الوطن وبين كل تجمع سكاني سواء في المدينة أو الريف، والفضل في ذلك يعود إلى المؤسسات التعليمية كالزوايا والكتاتيب القرآنية والمساجد التي كانت تقوم بمهمتها في تعليم الأمة وتنشئتها التنشئة العربية الدينية الصالحة [1] إذ تمكن الطلاب في الاستفادة من دروسها، وتشربوا من ينابيع اللغة العربية والتعاليم الإسلامية، الأمر الذي جعل المجتمع الجزائري متشبعا بالفكر القومي العربي الإسلامي.

غير أن عين الاستعمار لم تكن غافلة بل كانت بالمرصاد، حيث عمل جاهدا على تحطيم هذه المؤسسات وتحويل بعضها، وفي هذا الشأن يقول أحمد توفيق المدني "**فالاستعمار قد حطم كل الكتاتيب القرآنية وألغى وحجر التعليم في المساجد التي دمر وهدم أكثرها**"[2] ، كما قامت فرنسا باحتلال بعض المساجد التي تم تحويلها من مهمتها الدينية والثقافية للمصالح الإدارية والعسكرية[3] وحتى التجارية، بل هدمت البعض الآخر بحجة المصلحة العامة وتوسيع الشوارع والحدائق والمساحات العمومية، الأمر الذي أدى إلى تناقص أعدادها تدريجيا لصالح المصالح الاستعمارية.

وما يقال عن الجزائر بصفة عامة يقال عن منطقة وادي ميزاب [4] بصفة خاصة، هذه الأخيرة التي تميزت فيها الحياة الثقافية بالحيوية والنشاط الدائم قبل الاحتلال الفرنسي، فكانت تتمتع مثلها مثل بقية المناطق الأخرى عبر القطر الجزائري، فلعبت المساجد دورا بارزا في تدريس مختلف العلوم الدينية في العقيدة والتفسير والفقه وغيرها من العلوم، ولا ننسى حلقة العزابة التي كانت إحدى أهم الروافد الثقافية، وكان رئيس الحلقة يعتبر الإمام العادل في المجتمع الميزابي، فهو الذي يشرف على العملية التعليمية وفق نظام صارم.

ولما قامت السلطات الفرنسية بتضييق الخناق على التعليم الجزائري، وذلك بالاستيلاء على الأوقاف والمدارس ومحاربة مصادر تمويل التعليم، بدأت المؤسسات التعليمية عشية الاحتلال الفرنسي للبلاد في الاختفاء شيئا فشيئا، وبدأت الإدارة الفرنسية في تكريس سياستها تجاه اللغة العربية وبهذا يكون القرن19م، قد تميز بالجمود الفكري والخمول الثقافي، وانعدام تعليم عربي أو مدرسة تربوية عربية من شأنها تحضير الأجيال حضاريا واجتماعيا وسياسيا، للقيام بأدوارها المنوطة بها في كل المجالات وذلك ما يتضح من خلال حركة المثقفين الجزائريين باللغة العربية في تونس [5].

II– أثر النهضة العلمية التونسية في الجزائريين

خلال الثلث الأول من القرن 20م، الذي تمخض عنه وضع النواة الأولى لحركة إصلاحية جزائرية، اعتمدت أساسا على التعليم العربي للنهوض بالبلاد وإخراجها من دائرة التخلف والتقهقر إلى دائرة التقدم والرقي الحضاري والعلمي، هناك ثلة هامة من الصفوة الجزائرية التي أخذت على عاتقها مهمة النهوض بالبلاد ثقافيا وعلميا، والتي لم تجد سدا لتأدية مهامها على أكمل وجه ممكن أن تقصد في إطار الهجرة الخارجية والهروب من الأوضاع المزرية التي آلت بالبلاد متجهة نحو تونس الشقيقة، إما بدافع إكمال الدراسة وطلب العلم أو للعمل من أجل سد رمق العيش ... حيث هاجر الجزائريون في شكل بعثات جماعية منتظمة تارة وفردية مطلقة الحرية تارة أخرى [6]. لإكمال المشوار الدراسي، لذلك بدأت المدارس التونسية تستقطب أنظار الطلبة

الجزائريين وبالدرجة الأولى جامع الزيتونة [7] الذي يعد منبر من منابر العلم في تونس، هذا الأخير الذي بدأ يستقبل الطلائع الأولى من الطلبة المهاجرين الجزائريين، وكان في طليعتهم عبد الحميد ابن باديس [8]، هذا الأخير الذي يعد بدون منازع من واضعي أسس التواصل الثقافي والعلمي بين تونس والجزائر، بحيث كانت رحلته سنة 1908 نحو جامع الزيتونة بتونس طلبا للعلم، وبعدما أتم دراسته ونال شهادة التطويع عام 1912 [9] عاد إلى الجزائر حيث تصدى للتدريس في جامع سيدي لخضر وجامع سيدي قموش، ومنذ رجوعه إلى أرض الوطن هيأ ابن باديس خطة وبرنامجا تعليميا يمكن الشبيبة الجزائرية من نفض غبار الجهل والأمية نهائيا عليها، ويقطع الصلة كلية بين ماضي عقيم وحاضر زاهر مبتسم كما كان يتصوره ابن باديس [10] .

III- أهمية تونس والعوامل المساعدة على الهجرة نحوها

لما كانت أوضاع وادي ميزاب التعليمية متدهورة بسبب السياسة الاستعمارية جعلت الكثير من أبناء المنطقة لا يكتفون ولا يقتنعون بما يتزودون به من علوم مختلفة، فكانوا يتوقون إلى الاستزادة في التحصيل العلمي بالتفكير في السفر إلى البلدان المجاورة ذات الحظائر العلمية الزاهية لأجل النهل من علومها والجلوس إلى حلق علمائها الأجلاء، والاستفادة منهم، كونهم أساتذة بارعون مثل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ الصادق النيفر والشيخ البشير صفر وغيرهم وهم رواد النهضة العلمية التونسية الحديثة، الذين كانوا ناشطين في جامع الزيتونة وبالتالي فهو منارة علمية ذات أهمية بالغة كانت مقصد الجميع، لا سيما أهل ميزاب الذين قصدوا تونس للعلم والتجارة بأعداد كبيرة، ووجدوا هؤلاء المهاجرون في البلد المضياف ضالتهم، فقصدوها باعتبارها منطقة آمان وعبور إلى البلاد العربية الإسلامية، وهروبا من السياسة الاستعمارية المسلطة في الجزائر، حيث كانت تونس تمثل بوابة الشرق العربي والإسلامي بالنسبة للمهاجرين الجزائريين [11] .

هذا بالإضافة إلى أن تونس ظلت تنعم بالاستقلال إلى غاية فرض الحماية عام 1881 وبالتالي فإن أوضاع تونس كانت على أحسن حال من الأوضاع الجزائرية في هذه الفترة، أضافة

إلى ذلك تطور الحياة الفكرية والثقافية في تونس، وانتعاشها بفضل انتشار مدارسها ومراكزها العلمية مثل جامع الزيتونة والمدرستين الصادقية والخلدونية [12] حين كانت موردا علميا عذبا اغترفوا من ينابيعه الصافية في الوقت الذي ضاقت بهم كل السبل في بلادهم، بسبب حصار السلطات الاستعمارية لفرص التعليم [13].

يقول محمد الصالح الجابري: "**باشتهار مدينة تونس وانتقال مركز الثقل العلمي إليها منذ العصر الحفصي وما عرف عن الحفصيين من احتفائهم بالعلماء وإنشاء الجوامع والمدارس وترتيب القوانين لها، اختصرت طرق الرحلة العلمية من الحواضر والمدن الجزائرية وأصبحت المسافة الفاصلة بينها وبين تونس العاصمة سبيلا وأقل جهدا في صحبة القوافل الوافدة عليها سواء من قسنطينة أو بلاد العناب أو حتى من بجاية وبسكرة في جنوب الجزائر**" [14]. ولعل قرب مدينة تونس من الحواضر الجزائرية الشرقية وخصوصا منها مدينة بجاية ووادي ميزاب، هو الذي اختصر كلفة الرحلة إليها فتعدد المقبلون على جامع الزيتونة وعلى المدارس الأخرى التي تكاثر عددها خلال هذه الفترة.

IV- هجرة طلبة وادي ميزاب ودورها في تكوين شخصيتهم

اعتبرت منطقة وادي ميزاب منذ دخول الاستعمار الفرنسي إليها منطقة حماية تخضع لبعض المعاهدات المتشابهة لما أبرم من معاهدات بين باي تونس وبين السلطة الاستعمارية الفرنسية، وتبعا لهذه الوضعية الخاصة تمكن سكان المنطقة الجنوبية بصفة عامة ومنطقة وادي ميزاب بصفة خاصة من المحافظة على تعليم أبنائهم العربية، وإنشاء المدارس القرآنية بجهود المخلصين والمتطوعين من أبناء البلاد، على أن طموحهم إلى الهجرة الخارجية والتي كانت أهدافها علمية، لم تتبلور إلا منذ رحلات الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وإطلاق دعوته والقيام بحملاته وزياراته إلى المناطق الجنوبية مثيرا في الأوساط التعليمية فكرة البعثات إلى الخارج وإلى جامع الزيتونة بالذات [15] . وبالتالي فإن الهجرة الطلابية التي كانت منطلقها الشرق الجزائري بقيادة ابن باديس

سرعان ما توالت وتدفقت على جامع الزيتونة أفواجا من الجنوب، انطلاقا من مدينة القرارة وبخاصة من مدينة تبسة حيث كان يقيم بها بعض التجار من أبناء وادي ميزاب.

1) البعثات العلمية الميزابية ونظامها الداخلي:

1-1) البعثة اليقظانية الأولى:

رحل إلى تونس عام 1912 الطالب الشاب أبو اليقظان، ليزاول دراسته في جامع الزيتونة بطريقة غير نظامية، فكان يختار لنفسه المواد والحلقات والأوقات التي يحضرها، شأنه في ذلك شأن الكثير من الجزائريين، ولقد عاصر بعض الوقت الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي سبقه إلى الزيتونة ببضع سنين [16]. ولما أغلقت المدرسة الصديقية في مدينة تبسة عام 1913، كان عزم الأولياء على نقل أبنائهم إلى تونس وكانت مشكلتهم فيمن سيتولى الإشراف عليهم لمزاولة دراستهم، خاصة وأنهم لا يزالون فتيانا صغارا في مرحلة دراستهم الابتدائية بحاجة إلى رعاية ورقابة [17].

سرعان ما اهتدى هؤلاء الأولياء إلى الشاب إبراهيم أبي اليقظان الذي كان زميل بعضهم في حلقة شيخهم الحاج عمر بن يحي بالقرارة، فتم الاتصال به، فوافق على المشروع ورحب به ورأي بأن الحلم الذي راوده طويلا قد بات حقيقة، خاصة وأنه كان دائما يتألم لحرمان أبناء وطنه من حق التعليم العربي. لقد تمكنت أول بعثة علمية ميزابية أن تحتاز مدينة تبسة إلى تونس في ماي 1914 [18]. أشرف على رعايتها عالمان من أفاضل علماء وادي ميزاب وهما الشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى أبو اليقظان والحاج عمر العنق [19] وكانت نواة هذه البعثة تلاميذ من المدرسة الصديقية بتبسة التي أغلق الاستعمار الفرنسي أبوابها.

وقد ضمت البعثة في أول أمرها مجموعة من التلاميذ تراوح عددهم بين ست إلى عشرة تلاميذ منهم دحمان بن الحاج بكير المرموري، وحمو بن عيسى المرموري، سعيد بن الحاج إبراهيم المرموري، محمد بن مسعود المرموري، ويوسف بن الحاج بكير المرموري، أما من انضم إليها من تونس فهم بوهون بن قاسم الزيتون وأخوه بكير ومحمد بن عمر بوعصبانة ويحي بن الحاج يوسف

مزور وإبراهيم بن حمو بغباغة وأخوه أحمد ويحي بورورو من غرداية ومحمد بن إبراهيم المفنون من بني يزقن [20]. وكان مقر البعثة المدرسة السليمانية.

لقد حرص القائمون عليها أن يكون هؤلاء التلاميذ في إطار منظم يكفل سلامة أخلاقهم ويضمن جودة تحصيلهم الدراسي [21]، لذلك وضع المشرفون على البعثة بعد الاستقرار في تونس نظاما داخليا دقيقا، يكفل انضباط التلاميذ في كامل فترات اليوم والأسبوع والشهر حركة وسكونا، عملا وراحة [22].

لقد قامت البعثة على أسس علمية إسلامية وطنية سطرها أبو اليقظان، من أجل تكوين البعثة وفق برنامج يومي محكم كالصلاة جماعة ومذاكرة القرآن أفرادا وجماعات والاعتماد على النفس في القيام بشؤون البيت طبخا وتنظيما... حتى يصبح هذا النظام في البعثة جزءا من التربية الإسلامية التي يحاسب عليها التلاميذ حين يحاسب على دروسه [23].

عاش أبي اليقظان وتلاميذه عدة أشهر زمن البعثة جوا مفعما بالنشاط والحيوية شغفا في الإلمام بأكبر قدر من التحصيل العلمي في مختلف المواد العربية العصرية، أمله الوحيد في العودة إلى أرض الوطن، برجال قادرين على حمل رسالة نبيلة هدفها المساهمة في نهضة الأمة نهضة شاملة. لقد واجه أبو اليقظان عدة عراقيل وعقبات لا سيما ظروف الحرب العالمية الأولى القاسية التي وصل لهيبها إلى تونس بما تحمله من مضايقات، حيث تم إغلاق مؤسسات التعليم في تونس الأمر الذي أجبر البعثة على العودة إلى البلاد سنة 1915 على غرار بعثة ابن باديس [24].

لقد استقبلت الجماعات الميزابية هذه المجموعة المتميزة من التلاميذ رفقة مشرفيها بحفاوة كبيرة وابتهاج شديد للنتائج التي تحصلت عليها وتمكنت من حصدها خلال فترة زمنية قصيرة، إذ تمكنت من إحياء حفلات ثقافية حضرها أعيان الجماعات، وقدم فيها التلاميذ نماذج مما تعلموه وتربوا عليه في المدارس التونسية وفي البعثة اليقظانية فهي بمثابة فاتحة خير على الجزائر ووادي ميزاب آملين من ذلك إقناع مسؤوليها بأهمية التعليم العصري وفائدة مشروع البعثات العلمية إلى الخارج.

2-1) البعثة اليقظانية الثانية:

رغم الظروف الصعبة التي سببتها الحرب العالمية الأولى، إلا أن البعثات العلمية بقيت مصرة على مواصلة درب الكفاح، لأجل طلب العلم في تونس وتجسد ذلك من خلال إعادة تحضير بعثة علمية ميزابية ثانية، تشكلت بإرادة قوية فولاذية وعزيمة راسخة، تكونت من مجموعة طلبة متخرجين من حلقة الشيخ عمر بن يحي [25]، حيث كانت لهم رغبة جامحة في السفر ومواصلة دراستهم والاستفادة من التحصيل العلمي بتونس، وبالضبط جامع الزيتونة وكان ذلك سنة 1917 [26]، قادها الشيخ أبو اليقظان رفقة الشيخ إبراهيم أطفيش وكان من عناصرها كل من محمد علي دبوز [27] ومفدي زكرياء [28] وحمود بن سليمان رمضان [29] وعبد العزيز الثميني والشيخ صالح بن يحي [30].

وكان نظام البعثة شبيه بالنظام السابق للبعثة الأولى، الذي أقامه أبو اليقظان حيث كانت العناية والتركيز على مراقبة أخلاق الشباب خوفا من الانحراف أو الفساد وضبط سلوكهم واستكمال تربيتهم وملء أوقات فراغهم وتوفير الجو الملائم لدراستهم مع تقديم دروس إضافية يومية لهم، إضافة إلى تكوين مجموعات صوتية ومسرحية لتنمية هوايات الطلبة وتهذيب أذواقهم [31]. كما تم تنظيم جمعيات أدبية لتثقيفهم ولتفجير مواهبهم وتشجيعهم على المطالعة وتدريبهم على الفصاحة والخطابة وحفظ الشعر.

كما تم تنظيم أمسيات وسهرات فنية وأدبية تجمع بين الجد والمرح للترويح عن النفس والتدريب على الشجاعة الأدبية واكتشاف المواهب والقدرات الفكرية، ووضع برنامج رياضي ترفيهي يوم عطلة نهاية الأسبوع، يتضمن الخروج إلى الغابات والأجنة والشواطئ، للعب كرة القدم وتعلم السباحة والاستمتاع بجمال الطبيعة [32]. لقد أشاد العديد من المؤرخين والكتاب بالنظام والنشاط الذي عرفته بعثة أبي اليقظان فعلى سبيل المثال شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله، الذي أعجب واستبشر وتفاءل بتلك النهضة الثقافية التي بدأت بوادرها تظهر فعلا حيث

يقول: "**إن ما يلفت النظر في البعثات الميزابية هو الإشراف والتوجيه والانضباط ... وكذلك وسائل الاستقبال وتسهيلات الإقامة والدراسة**" (33).

كما وصف عبد الحميد ابن باديس انطباعاته عن البعثة في مقالا نشر سنة 1921 تحت عنوان "نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية" (34) يقول فيه: "**إن الشعور الوطني إذا أفعم القلوب لا بد أن تظهر ثمراته في الأعمال حتى تبلغ الأمة غاية الكمال... وهاهم أولاد إخواننا (الميزابيين) سرى فيهم شعور صحيح، فولعوا بالتقدم وأخذوا يتمسكون بأسبابه بجد واجتهاد، أخذوا في طريق التجارة حتى ملكوا أزمتها وصاروا العضو القوي الإسلامي بالجزائر فيها، وهاهم اليوم يسعون في طريق العلم، ويرحلون في طلبه وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون...حللت بتونس فاستدعتني جماعتهم إلى الحضور عندهم في دارهم ليلا فلما فرغنا من العشاء، خرجت إلى صحن الدار المتعلمة بالمدارس التونسية، على الأسلوب الحديث الذي يجمع بين العلوم الدينية والدنيوية واللغة العربية والفرنسوية مع حفظ القرآن فاصطفوا بنظام وشنفوا أسماع الحاضرين بالأناشيد الوطنية والمدرسية وتحاوروا بالمناظرة القلمية، مرأينا منهم أهلة توشك أن تكون أقمارا، وغروسا طيبة توشك أن تجني ثمارا**" (35).

استمرت البعثة اليقظانية بهذا المستوى العالي من الكفاح والجهاد مدة زمنية طويلة، أثمرت جيلا من المثقفين الوطنيين، الذين عادوا إلى أرض الوطن مكونين ومؤهلين للقيام بالمهمة المنوطة بهم والتي تمثلت في النهوض بالبلاد ثقافيا وعلميا والعمل على إنارة العقول التي أصابها الجمود والخمول بسبب السياسة الاستعمارية وما ترتب عنها من آثارا وخيمة اجتماعيا ودينيا...

لم تكن بعثات أبي اليقظان لوحدها تصل إلى تونس بلد العلم والعلماء، فسرعان ما التحقت بعثة أخرى ميزابية برئاسة محمد الثميني عام 1919 وأخرى تحت إشراف الحاج صالح بن باعلي حيث التحقت بتونس ثلاث بعثات ميزابية في آن واحد (36) .

وقبل أن يعود أبا اليقظان إلى أرض الوطن عام 1925، ومن أجل التفرغ لمجال الصحافة العربية الحرة، استقدم أحد رفقائه من بلدته ميزاب حتى يستخلفه في مهمة رئاسة البعثة وهو السيد قاسم بن الحاج عيسى، وقد وقف إلى جانبه مجموعة من كبار الطلبة لمساعدته في إدارة شؤون البعثة واستمر نشاطه إلى سنة 1936 [37]. كما استمرت البعثة في نشاطها بقيادة الشيخين أبي إسحاق أطفيش والثميني، غير أن نفي الشيخ أطفيش إلى مصر عام 1923 غادر تونس وبقي الشيخ الثميني رئيسا للبعثة التي استمر نشاطها إلى غاية عام 1958 [38].

كما ظهرت بعثة تابعة لجمعية الإصلاح ببلدة غرداية عام 1936 حيث كلفت أحد أبنائها المخلصين وهو الشيخ بنوح مصباح المتخرج من معاهد تونس وبالضبط بعثة أبي اليقظان حيث نشطت مدة أربع سنوات، فكونت شبابا واستمرت إلى غاية قيام الحرب العالمية الثانية، ولما تدهورت الأوضاع في تونس بسبب الحرب، اضطر الشيخ بنوح للعودة بطلبته إلى أرض الوطن. وبهذا نقول بأن البعثات العلمية الميزابية قد أتت أكلها من خلال الأثر الناتج عنها في المجال العلمي التربوي والإصلاحي وإسهامات رجالها في مسيرة النضال الوطني لبعث القضية الوطنية وقضايا العالم العربي والإسلامي.

1-3) البعثة البيوضية:

لم تنقطع البعثات العلمية الجزائرية من أبناء وادي ميزاب إلى تونس المعروفة بمعاهدها وجامعاتها العريقة الناشطة، منذ أوائل الحرب العالمية الأولى، حتى استقلال الجزائر في أوائل الستينات بل تواصلت من خلال قيادة جديدة لرجال عرفوا بمسيرتهم الحافلة في منطقة وادي ميزاب، فبفضلهم انتعشت الحياة الثقافية من خلال انتشار معاهدها ومدارسها، وكانت البعثة البيوضية التي بدأت تتكون نواتها الأولى مع بداية الأربعينيات، إذ تشكلت من تلامذة معهد الحياة بالقرارة، هذا الأخير الذي كان منارا للإشعاع المعرفي والإصلاحي والاجتماعي، فلقد ساهم بشكل كبير في إنارة الفكر الإسلامي وإنماء الشعور الديني، وإذكاء الحس الوطني في نفوس تلامذته وهم أشبال طامحين لاستكمال مشوارهم الدراسي في تونس الشقيقة.

ظهرت البعثة في وضع حالك وزمن مضطرب كانت تعيشه الجزائر وجيرانها، وهي ظروف الحرب العالمية الثانية، أين كان الاستعمار الفرنسي يشدد الخناق على السفر بين المناطق الداخلية والخارجية، حيث لا يتم التنقل إلا برخصة تسلمها إدارته التي تشددت في منحها، فكان السفر إلى تونس لطلب العلم قد أغلقت أبوابه وصار متعذرا على من يستهويه ويرغب في الرحلة إليها (39). غير أن جماعة من طلاب العلم الجزائريين غامرت بحياتها وسافرت بدون رخصة ولا جواز سفر إلى تونس عن طريق الطرق الملتوية، فاختارت طريق الجبال التي تقل فيها الرقابة، حيث تمكن بعض من تلامذة معهد الحياة وهم محمد علي دبوز، عيسى بن الحاج، عمر بوحجام ومحمد بن إبراهيم المرموري (40). وقد شكل هؤلاء الطليعة الأولى للبعثة البيوضية، فتمكنوا من الوصول إلى تونس والانخراط في صفوف طلبة جامع الزيتونة ومعهد ابن خلدون ومختلف مكتبات تونس العامة بين سنتين 1942–1943 بعد أن عانوا المصاعب الجمة وقاسوا مشقة الاغتراب والهجرة واجتياز الحدود إما بصورة شرعية أو غير شرعية (41).

البعثة البيوضية في سنة 1359هـ /1940م، يتوسطها الشيخ بيوض وعلى يمينه الشيخ عدّون مدير المعهد وعمر بودي رئيس البعثة وعلى يساره الشيخ عمر بن صالح آت داود ومحمد بن بالحاج ابن يامي وأحمد بن عمر أوراغ.

(42)

وعن معاناة البعثة يقول الدكتور محمد الصالح الجابري: "**عانى الطلبة الجزائريون في الطور الأول من البعثة، شتى صنوف العذاب والحاجة والمضايقات النفسية والمعنوية، فكانوا يشدون الرحال إلى تونس تارة على الأقدام، وطورا على المطايا عابرين الحدود معرضين أنفسهم لكل المخاطر والمجازفات، وبعد قطع المسافات الطويلة كانوا لا يجدون من يخفف عنهم أعباء الغربة...وكثيرا ما يكون مرجعهم الوحيد شيخ من المشايخ يوكل إليه الطلبة...** (43).

وبعد الحرب العالمية الثانية تتابعت قوافل طلب العلم من معهد الحياة تحذوها العزيمة القوية وحب الاطلاع والرغبة في تمتين أواصر اللحمة وتعزيز الإسلام واللغة العربية، فتوافدت إلى تونس بانتظام وبالمستوى الرفيع الذي عرفته البعثات اليقظانية السابقة (44).

رغم أن هجرة الوطن في سبيل طلب العلم قد اتخذت طابعا مأساويا في حياة الجزائريين عامة الميزابيين خاصة، تبعا للهجرات الجماعية التي نزحت من الجزائر بأعداد هائلة في مطلع القرن 20م، واتجهت اتجاهات مختلفة وخلفت مآسي شتى، فإن هذه الهجرة لم تكن هروبا وفرارا أو البحث عن الراحة والخلود إلى السكينة، بل كانت لها معاني راسخة ورائعة أدركها فضيلة الشيخ عبد الحميد ابن باديس حين قال: "... **يا أبنائي الجزائريين هاجرتم وطنكم لا لتستريحوا منه وتتركوه فتكونوا هاجرتم بأنفسكم لأنفسكم، بل لتتعبوا أنفسكم ثم تعودوا إليه فتنقذوه**" وقد شبه ذلك بهجرة الرسول محمد ﷺ وهجرة أصحابه رضي الله عنهم من مكة إلى المدينة المنورة (45).

لقد تمكن في منتصف الأربعينات من أن يلتحق بالركب العلمي الأول ثلاثة طلاب آخرون وهم محمد بن الناصر حميد أوجانة وعلي يحي معمر النفوسي وبالحاج بن عدون شريفي وهم من طلبة معهد الحياة، وفي أواخر الأربعينات التحق بالسابقين أفراد آخرون منهم محمد بن البعثة وإبراهيم بن علي الأطرش وبكير بن محمد أرشوم ومحمد بن إبراهيم سعيد (كعباش) ومحمد بن بالحاج العايب وغيرهم (46).

لقد حظيت البعثة العلمية بتونس بالرعاية من طرف تجار بني ميزاب الذين كانوا يقيمون بها، وجمعت لها الأموال وأجرت لها دارا للإقامة أصبحت فيما بعد تعرف بدار البعثة، توفر للقادمين المأوى والمسكن والمقام والطعام والإشراف والمتابعة، كما كان لأبي اليقظان دارا كبيرة في تونس، استعملها مأوى للطلبة الوافدين من ميزاب أمثال الشيخ إبراهيم أطفيش والشيخ محمد الثميني والشيخ يوسف بن بكير والحاج عمر بوحجام وهم الدفعة الأولى لطلبته، يقول الشيخ إبراهيم بيوض بأنه لما وصل إلى تونس في الأول من ديسمبر وأقمت في دار البعثة لأبي اليقظان إلى غاية فيفري 1921 بحيث تمكنت في هذه الفترة من الاطلاع على المعاهد العلمية بتونس(47).

يقول أحد الطلبة: "**كان إيفادنا إلى تونس بسعي كريم، وحسن ظن من رجال العلم والمال في مدينة القرارة، لاستكمال تعلمينا في جامع الزيتونة والخلدونية، والبعثات العلمية من وادي ميزاب إلى تونس مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي في العلم والمال، فالبعثة تكون عادة على نفقة جماعية تتولاها العشيرة أو القرية التي ينتسب الطلبة إليها، وقد لا يتحمل ولي الطالب أية نفقة في مهمة طلب العلم، ويتم اختيار المبعوثين على أسس موضوعية تعود بالأساس إلى تفوقهم في الدراسة واستعدادهم للتوسع فيها خارج الجزائر**"(48). وهنا يوضح الطالب مدى اهتمام أهل وادي ميزاب في تعليم أبنائهم وتشجيعهم على مواصلة طلب العلم خارج الوطن، وذلك من خلال التكافل الاجتماعي وجمع الأموال لتسديد نفقات دراسة أبنائهم المتفوقين.

خاتمة:

وفي الأخير نخلص إلى القول بأن البعثات العلمية الميزابية إلى تونس مع مطلع القرن العشرين كان لها الدور العظيم في إرساء أسس النهضة الفكرية في الجزائر من خلال نشاط تلامذتها الكثيف رغم الصعوبات والعراقيل التي حاصرتهم سواء خلال سفرهم إلى بلاد المهجر أو حين عودتهم إلى ارض الوطن حيث كانت البلاد تئن تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي فرض القيود على كل حركة علمية دائبة تخدم المجتمع الجزائري.

الهوامش:

(1) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ص116.

(2) نفسه.

(3) كمال كاتب: أوروبيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، ترجمة رمضان زبدي، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 110.

(4) منطقة وادي ميزاب من المناطق الصحراوية الممتدة على دائرتي عرض 20-32 شمالا، وخطي طول 2-30 شرقا، تبعد عن الجزائر العاصمة جنوبا في خط مستقيم بنحو600 كلم.عاصمتها غرداية وهي توجد على ارتفاع 515م من سطح البحر، تتخللها عدة أودية منها واد ميزاب وروافده، ووادي بلوح، ووادي متليلي ... وبلاد ميزاب هي الجزء الأكبر من بلاد الشبكة، تضم اليوم المدن السبع وهي غرداية- مليكة- بني يزقن- بونورة- العطف- بريان- القرارة، وحسب محمد علي دبوز أن أصل الميزابيين من العرب والبربر، ففي عروقهم دماء العرب والبربر جميعا، ولا صلة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خلص، فالبربر الخلص اذا أمكن وجودهم في المغرب، ففي رؤوس الجبال المنقطعة التي لا تعرف دولة وحضارة، أما الميزابيون فمتحضرون وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت في الجزائر، اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية سيما العرب. للمزيد انظر: محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، المطبعة التعاونية، دمشق، 1965، ص 167. أيضا: بكير بن سعيد أوعشت: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا تاريخا اجتماعيا، المطبعة العربية، غرداية، 1991، ص61.

(5) عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة (1830–1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 399.

(6) محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1962-1900)، دار العربية للكتاب، الجزائر، 1983 ص 06.

(7) جامع الزيتونة: أسسه على الأرجح حسان بن النعمان فاتح تونس في حدود (698–699)، عرف صدور قانون التعليم عام 1251 بنقل الخزائن والكتب، أدخلت عليه إصلاحات جديدة في عهد خير الدين التونسي (–1308 1225) متعدد البرامج، يدرس فيه الطالب سبع سنوات كاملة حيث يتحصل على شهادة التطويع وهي أعلى الشهادات في ذلك الوقت. للمزيد أنظر: على الزيدي: الوضع العام بالتعليم الزيتوني حتى إصلاح سنة 1951، المجلة المغربية التاريخية، عدد 33، 34، تونس 1984، ص 105، أيضا: محمد الشاذلي النيفر: "الزيتونة في التاريخ"، الصادقية، ع05، تونس.1997

(8) هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس ولد بقسنطينة (1889– 1940) ينتمي إلى أسرة معروفة بالعلم والجاه، كان أبوه عضوا في المجلس الأعلى وعضوا بمجلس العمالة، درس عبد الحميد في الكتاب، حيث حفظ القرآن الكريم وعمره 13 سنة ثم سافر إلى تونس عام 1908 ثم عاد إلى قسنطينة عام 1913 لأداء وظيفة التدريس، وعشية الحرب العالمية الأولى سافر مجددا إلى تونس، كما زار الحجاز ويعد أحد مؤسسي جمعية العلماء المسلمين عام 1931 وباعث النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر، للمزيد أنظر: أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، قسنطينة، 1992، ص 120، 121.

(9) محمد صالح الجابري: الأدب الجزائري المعاصر، ص17.

(10) عمار هلال: المرجع السابق، ص407.

(11) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، عالم المعرفة، الجزائر،2011، ص 490.

(12) محمد بوطيبي: دور المثقفين الجزائريين في الحركة الوطنية التونسية ما بين 1900–1930، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2007–2008، ص 14.

(13) إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر 1830–1962، ط2، دار هومة، الجزائر، 2008، ص.280

(14) محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي، ص 23.

(15) محمد الصالح الجابري، المرجع السابق، ص 38.

(16) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص 291.

(17) قاسم بن أحمد الشيخ بلحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر (1744–1962)، جمعية التراث، القرارة، غرداية، 2011، ص 571.

(18) يذكر الجابري في كتابه النشاط العلمي بأن أول بعثة ميزابية باتجاه جامع الزيتونة كانت سنة 1917 بقيادة الشيخ إبراهيم أطفيش.

(19) الحاج عمر العنق: درس في معهد القطب بميزاب ثم سافر إلى تبسة أين يوجد أخوه التاجر بكير العنق، تولي منصب أمين مال الجمعية الصديقية فكان أحد مدرسيها بعدها سافر إلى تونس لرعاية البعثة والإشراف عليها في جامع الزيتونة.

(20) عبد القادر قوبع: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنين 1920–1954، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر،2007–2008، ص 63.

(21) انظر: نموذج عن القوانين الداخلية لامتحانات تلاميذ الجامع الأعظم وفروعه، الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة L، حافظة رقم 08، ملف رقم 02، ملف فرعي رقم 01.

(22) الحاج موسى بن عمر: القضايا الوطنية والعربية الإسلامية من منظور أعلام ميزاب 1902–1962، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، 2007-2008، ص 134.

(23) أبو اليقظان: إرشاد الحائرين، مطابع العرب، تونس، 1923، ص 06.

(24) محمد الصالح الجابري، المرجع السابق، ص 38.

(25) أنظر قائمة لبعض الطلبة الميزابيين في الملحق رقم: 04.

(26) أبو اليقظان: المصدر السابق، ص05.

(27) محمد علي دبوز (1919 –1981) تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه ببريان ثم زاول دراسته في معهد الحياة بالقرارة على يد الشيخان إبراهيم بيوض وعدون، ثم سافر إلى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة بعدها جامع الأزهر بمصر، ما لبث أن عاد إلى وادي ميزاب عام 1948 ليشتغل أستاذا بمعهد الحياة، له العديد من المؤلفات منها تاريخ المغرب الكبير في ثلاثة أجزاء، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة في ثلاث أجزاء. أعلام الإصلاح في الجزائر في خمسة أجزاء وغيرها من الأعمال الضخمة التي يشكر عليها.

(28) هو زكرياء بن سليمان آل الشيخ المعروف بمفدي زكرياء (1908-1977) أديب، شاعر وسياسي إباضي جزائري، عرف باسم شاعر الثورة التحريرية ولد بمدينة بني يزقن في غرداية بوادي ميزاب وبها تعلم المبادئ الأولى للقراءة والكتابة... ثم انتقل إلى تونس ضمن البعثة العلمية الميزانية وتعلم في مدرسة السلام القرآنية والمدرسة الخلدونية وجامع الزيتونة، انغمس في الحياة السياسية ضمن حزب نجم شمال إفريقيا ثم عين رئيسا للجنة التنفيذية لحزب الشعب ثم أمينا عاما له سنة1937 ،كما كلف بالإشراف على جريدة الشعب، ذاق مرارة سجون الاستعمار الفرنسي، له مساهمة فعالة في النشاط الأدبي والسياسي من آثاره الضخمة النشيد الوطني، إلياذة الجزائر، اللهب المقدس، تاريخ الصحافة العربية الجزائرية...للمزيد أنظر معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 328 .

(29) هو حمود بن سليمان ولقبه رمضان (1906–1926)، أديب، كاتب وشاعر ذو آراء نقدية في الأدب والأخلاق والوطنية ولد بمدينة غرداية بوادي ميزاب، تعلم القرآن ومبادئ اللغتين العربية والفرنسية بمدينة غليزان بالغرب الجزائري ثم واصل دراسته في مدارس تونس وفي جامع الزيتونة ضمن البعثة الميزابية من آثاره. مقالات نشرت في مجلتي وادي ميزاب والشهاب، وله بذور الحياة في الأدب والاجتماع والفتى، محاولة أدبية قصصية عن حياته، ومجموعة من القصائد نشر منها خمسة وعشرين قصيدة للمزيد أنظر: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص 261. أيضا عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط3، مؤسسة نويهض، بيروت، لبنان، 1983، ص 153.

(30) أحمد مريوش: الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير1954، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر 2005 – 2006.

(31) قاسم بن أحمد الشيخ بلحاج، المرجع السابق، ص 577.

(32) نفسه، ص.578

(33) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1954-1830)، ج3، عالم المعرفة، الجزائر،2011، ص 275.

(34) محمد صالح ناصر: "الشيخ عبد الحميد ابن باديس وعلاقته بالحركة الإصلاحية بوادي ميزاب"، مجلة الوعي، ع1، ط2، جويلية 2010، ص 23.

(35) عبد الحميد ابن باديس: "نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية"، مجلة الصديق، عدد44، (1921/09/19).

(36) الحاج موسى بن عمر، المرجع السابق، ص.135

(37) محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ط1، مطبعة البعث، قسنطينة،1978، ص 222.

(38) يوسف بن بكير الحاج السعيد: تاريخ بني ميزاب دراسة اجتماعية اقتصادية وسياسية، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 157. أيضا: محمد علي دبوز، المصدر نفسه، ص 249.

(39) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص25.

(40) محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح، ج3، ص 265.

(41) محمد الصالح الجابري، المرجع السابق، ص53.

(42) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة،ج3،ط1،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر،2013،ص 150.

(43) محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي، ص 100.

(44) محمد علي دبوز، المصدر السابق، ص117.

(45) محمد الصالح الجابري، المرجع نفسه، ص111.

(46) مصطفى بن داود ابن صالح: معالم الفكر الإصلاحي عند الشيخ إبراهيم بيوض وتطبيقه في المجتمع، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية، تخصص عقيدة، جامعة الجزائر01، 2011–2012، ص265.

(47) محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج2، ط1، عالم المعرفة، الجزائر،2013، ص188.

(48) صالح خرفي: من أعماق الصحراء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991، ص18.